رمادية الرواية الحديثة

بقلم محيي الدين محمد

ما الذي يميز الرواية الحديثة عن آثار كتّاب كبالزاك و فلوبير وديكنز .؟

كان جهد الخالق قديماً أن يصفّ بعض الحوادث المركبة بنزق واضح .. على أن تكون عقدة قصصية .. ينتهي عمل البطل بها عندما تُحلّ هذه العقدة في نهاية الكتاب بارتجال سخيف ، بعد مرورها بمفاجآت ومغامرات وتحبيكات عدة ، لا تخرج ابداً عن المضمون الذي دُفع . فان جميع أحداث الرواية القديمة كانت تقدم على واقع نمد أبداً ، ولا يعرف الا المشكلة التي جُعل من أجلها .. اية (كقصة مدينتين) لها أبطال معدودون ، فعندما يختفي حدث ما يبدأ حدث آخر لبطل ثان .. على ان جميع هذه الاحداث مرتبطة بالجوهر الاساسي الذي بنى عليه المؤلف قصته .. فلا تخرج عنه او تحيد .. ولكن هذا لا يمثل حياتنا التي تمتلىء بأشياء خوارج .. ففي طريقنا لعمل شيء مثلاً نمرّ مسجلين أحداثاً ، مدهشة .. تمثل واقعاً متضخماً حقيقياً محايداً .. ترام مكتظ بالبشر .. طفل يسأل عن الوقت .. شيخ يسأل عن الطريق ..

ما من شك أن هذه الاشتات التي نجمعها من هنا وهناك تستطيل في شعورنا ممثلةً طبيعة حياتنا بواقعها الصحيح . اما في اعمال الكلاسيكيين الخالدة ، فاننا لا نستطيع تتبع هذه الرمادية المحايدة التي تكوّن الـ Background للرواية المحكية .

في جين آير Jane Eyre « لشارلوت برونتي » لا يمكننا تمثل هذه الوقائع المفزعة جيداً.. إلا كما تتمثل لنا من خلل الضباب أبراج كنيسة.. إننا نفتقد الصدق الذي توضحه لنا الاشياء العادية:

« نعم(١) ؛ وأولئك المغاربة ذوو الوجوه الوسيمة.. كلهم مغمومون كأنهم الملوك . يسألونك أن تشرفهم بالدخول من حوانيتهم الصغيرة.. وروندا والنوافذ القديمة تطل خلسة . وأخفت خشب النافذة حتى يقبل عاشقها الاسياخ الحديدية ...

هذا الصدق هو الذي يرتفع بالاثر الفني .. وليس بجمالية خاصة . الصدق الذي نحسه في دقائقنا المعاشة .

في «نوتردام دو باري» « لهوجو » تتهيأ جميع احداث القصة لكي تأخذ السمت الواضح الذي حدده الخالق ، وليست هناك شخصية واحدة تستطيع دفع نفسها مفلتة من عالم القاص .. ، ومن خلال أعمال لا تُصدق لغرابتها — كما في « الكوليرا نابولي » من كتاب (احدوثة سان ميكيل) لأكسيل فوتيه نستطيع شمّ العفونة الفظيعة الحقيقية في دروب المدينة الميتة .. بل يمكننا — بقدرة ضئيلة على التصور — مراقبة الفيران الشنيعة الدائرة تصبّ الملاك .. هنا .. وهناك ..

« ثم اندفعت تعيث في المدينة فساداً وإزعاجاً بأنيابها السوداء الطويلة وعيونها الوحشية التي في لون الدم ، وذيولها الحمراء الرفيعة المجردة من الشعر .. !! »

ليست الحياة دراما كلها ليظل شخوصها حزانى حتى نهاية الكتاب فأين تذهب هذه اللحظات العبقرية التي تلهمنا السرور والانبساط ؟!

وحتى هذه الكوميديات المغرية في اصطناع الضحك (كبيكويك والدون كيشوت) ... انجد مثل هؤلاء الناس الآن .؟ أنستطيع دوماً ان نعيش حياتنا في انبساطية تامة .؟ أفنقدر (كهاملت) أن نحيا في مأساته المترددة حتى ختام أعمارنا؟

ان حياتنا ليست كوميديا أو مأساة .. فنحن جميعاً تتوزعنا لحظات همّ وفرح ولحظات أخرى رمادية لا صبغة لها فهل فاتت هذه الملاحظة أذهاناً وثابة نقادة كأذهان أولئك المردة العظام .؟

في قصة (شتاينبيك) « فيران ورجال » نجد أن الرمادية تسود الكتاب كله كمحاولة لتقرير الواقع الحادث .. فما هو الجديد الذي استحدثه (هوايتي) في القصة : « لقد اعتاد ان يغسل يديه .. حتى بعد الطعام .. » ولا تقرر هذه الحقيقة التي تبدهنا بيقينها البسيط — شيئاً ما جديداً .. وحتى عندما تُقيد ضربات قدم (سميتي) القوية لتتساوى مع ظهر (كروكس) المحطم .. فاننا لا نخرج منها بما يساعد (ليني وجورج) على ابتعاث مزرعتها الخيالية بأرانبها الملونة وخنازيرها وخضرتها الدائمة .. وهي هدف الرواية ...

بل ان غرابة حادثة يدبن صاحب الارض التي يضعها في قفاز مليء بالفازلين — والتي تثير فينا استنكاراً مدهشاً — لا دخل لها في القصة كلها ... أفنعتبر هذه الحوادث حشواً أو أنها محاولة لنقل الواقع الملموس.؟ اننا لا نستطيع تصور بطل

(١) جيمس جويس (لويس عوض)